الباب الثاني

طورا وقائع الحروب الصليبية

الفصل الأول

الطور الأول من تاريخ الحروب الصليبية
(الاحتلال)

اهتمت غالبية الأبحا ث الحديثة حول وقائع الحروب الصليبية بأسباب هذه الحروب خاصة من الجانب الأوربي ، وتأثر كل بحث بأحوال البلد الذي صدر فيه وبالتيارات الفكرية لأيامه وبمدرسة التفسير التاريخي التي إليها انتمى صاحب البحث ، وكذلك بالانتماء السياسي والكنسي ، حيث هناك أبحاث كثيرة مثلت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، وهناك ما مثل وجهة نظر الكنيسة الاورثونكسية البيزنطية ، وطبعا لايمكن الحديث عن أبحاث واسعة الانتشار تمثل وجهة نظر العرب والمسلمين ، وكتابنا هذا احدى المحاولات لعرض ما أسميه وجهة نظر عربية اسلامية .

لقد حاولت جل الدراسات الأوربية التقليل من العامل الديني وفعاليته والحث على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ووقفت مطولا عند نظام الاقطاع وتأثيراته ، وفي الحقيقة تشكل محاولات التقليل من العامل الديني نوعا من أنواع خداع الذات ، وسنرى في الجزء المقبل من موسوعتنا هذه مدى عمق وفعالية العامل الديني ، فمن غير المعقول أن تتخلى جموع من سكان أوربا تزيد على المليون مابين رجل وامرأة وشيخ وطفل عن حياتها ومواطنها وتأخذ الطريق الطويل الشاق نحو بلاد الشام لولا عمق المشاعر الدينية لدى هؤلاء الناس ، فالذي حرض هؤلاء وقادهم رجال الدين .

هذا ومواريث أوربا بشطريها الشرقي والغربي في شن حروب صليبية راسخة وواسعة ، فلقد عرضنا من قبل للحروب الصليبية التي شنها شارلمان ضد السكسون فضلا عن حروبه ضد مسلمي

الاندلس ، كما أتينا على الاشارة إلى صليبية القرن العاشر التي شنتها الامبراطورية البيزنطية ضد المسلمين في بلاد الشام وكريت ، يضاف إلى هذا إن الصراعات التي شهدتها ساحات اوربا الغربية مع الحروب بين البابوية والامبراطورية اخذت صبغة صليبية واضحة ، فلقد تسلحت البابوية بسلاح الدين واستخدمته ضد الأباطرة ليس لاثارة الأنصار فحسب بل بفرض عقوبات الحرمان والطرد من الكنيسة ضد الاباطرة ، فالبابوية كان بامكانها منح صكوك الغفران واصدار قرارات الحرمان ، والكنيسة هي التي فرضت هدنة الرب على امراء الاقطاع في اوربا ، ومن ثم وجهت طاقات هؤلاء الحربية لأعمال خارجية ، والكنيسة الكاثوليكية هي التي تبنت مابشر به اثناسيوس ثم عبادة الايقونات ومن ثم اوجدت عقيدة الحج في المسيحية وروجت لها وابدعت طقوسها.

ونشطت حركة الحج نحو فلسطين في القرن الحادي عشر كثيرا ، كل ذلك برغم المعوقات الشديدة على الطريق الاوربية وفي بيزنطة ، واحيانا في ديار المسلمين ، وقبل هذا القرن نادرا ما اتت المصادر الاسلامية على ذكر قدوم حجاج غربيين ، لكنها فعلت ذلك في اخبار هذا القرن ، فقد جاء عند العظيمي في حوادث سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م :« ومنع أهل السواحل حجاج الفرنج الروم العبور إلى بيت المقدس ، وانتشر الخبر ممن سلم منهم إلى بلادهم بذلك ، فتأهبوا للغزاة ، واتصلت الاخبار الى السواحل وبلاد المسلمين كلها (١)»

ولا شك أن هذا الخبر يقدم اساسا جيدا لحكاية بطرس الناسك ، وقدومه حاجا الى فلسطين ثم نشاطه الدعوي في أوربا للحروب الصليبية ، وكان الحج يخضع لطقوس أوجبت على من رغب بالتوجه الى فلسطين ان يحصل على اذن من أسقف منطقته ، فيتناول منه عصا الحج ومزودا ، وكانت العصا طويلة ، في وسطها عقدة وكذلك في اعلاها ليربط عليها شارة الصليب ، اما المزود فكان يعلق برباط ، وكان الحاج يزود بكتب توصية إلى الأديرة المسيحية التي

سيمر بها ، وكان أهل القرية يخرجون وهم يرتلون الأناشيد الدينية لتوديع الحجاج ، وفي كثير من الأحيان ، كان الحاج يبدأ رحلته حافي القدمين ، يستوي في ذلك الغني والفقير ، وكان بعض الحجاج ينحدر إلى روما لياخذ عصاه مع التبريكات من البابا نفسه ، ثم يركب البحر حتى القسطنطينية وبعدها يسافر برا عبر أسية الصغرى ، وفيما بعد اعتاد الحجاج على ركوب الطرق البرية حتى القسطنطينية ومن ثم نحو القدس (٢)، وهذا ما فعله الذين شاركوا في الحملات الصليبية ، لتوفر المعرفة بالطرق وطبيعتها ولقلة النفقات .

جميع القرائن تؤكد أن نفوس شعوب أوربا الغربية خاصة في فرنسا وايطاليا كانت مشبعة بالتمسك بالمسيحية والخضوع للبابوية ، وعلى الرغم من طبيعة المسيحية المسالمة بالأصل ، استطاعت البابوية تسويغ استخدام العنف ، وحين ألقى البابا أوربان الثاني خطابه في مجمع كليرمونت يوم ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ م فجر كوامن النفوس فصرخ الجميع « إنها ارادة الرب » وحملوا شارات الصليب وأخذوا يعدون العدة للانطلاق نحو المشرق .

ولقد رويت كلمة البابا أوربان الثاني في اكثر من مصدر وفيما يلي فقرات رئيسة مما قاله حسب احدى الروايات :

أيها الأخوة الأحباء :

إنه في ظل الظروف الملحة ، قدمت أنا أوربان ، المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم اجمع ، إليكم ياعباد الرب ، بمثابة رسول لأنبئكم بالأوامر الربانية ....عليكم وبكل سرعة ان تأخذوا المساعدات إلى اخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، إنهم بحاجة ملحة إليها ، إن العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في أراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من

قتلوا ، واخــذوا عددا كبيرا مــن الاسرى ، ودمـــــــروا الكنائس ، واجتــاحوا أراضي المملكة ، وإذا لم تتصــدوا لهــم الآن ، فإنهـــم سيمدون سلطانهم أعمق وسيذشرونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب أتوجه إليكم بــالرجاء والتحــريض ـ وإنه ليس أنا الذي أتــوجه إليكم ويحــرضكم ، بــل الرب على لســاني أنا نائب المسيح ـ أتوجه إلى الفقير منكم والغني وأســألكم أن تتســارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبــل اخــواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها المناسب إلى عبــاد المســيح ، إنني أخــاطب جميع هؤلاء الحضــور ، وأعلن الشيء نفســـه إلى جميع الغياب ، لكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامــر.

إن جميع الذين يذهبون ويفقدون حياتهم في البر أو البحــر أثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار ، سيتم غفران ذنوبهم بــالحال ، وإنني أمنح هذا من خلال السلطة المضفاة علي من قبل الرب .

إنه يتــوجب على هؤلاء الذين اعتــادوا ـ حتـــى الان ـ على الاقتتال ، مقترفين للاثــم ، منغمســين في صراع ضــد المؤمنين أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وأن يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ أمد طويل ....

إنهضوا وأديروا أسلحتكم التـــي تســتعملونها ضــد اخــوانكم ووجهوهــا ضد أعدائكم ، أعداء المســيحية ، إنكم تــظلمون الأيتــام والأرامل ، وأنتم تتورطون في القتل والاغتصاب ، وتنهبون الشــعب في الطرق العامة ، وتقبلون الرشــاوى لقتــل اخــوانكم المســيحيين وتريقون دماءهم ، دونما خوف أو وجل أو خجــل ، فــأنتم كالطيور الجوارح ، اكلة الجيف التــي تنجــذب لرائحــة الجيف الانســانية النتنة ، ضحايا جشــعكم ، انهضــوا اذن ولاتقــاتلوا اخـــوانكم المسيحيين بل قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مــدينة القــدس ، حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد ، افتــدوا انفســكم أنتــم المذنبين المقترفين احط أنواع الآثام .....

يجب على هؤلاء الذين كانوا مرتزقة ، يقــاتلون في ســبيل الاثــم

والعدوان ، أن يجندوا أنفسهم الان لنيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن أن أقول أكثر من هذا ؟

أقول : سيقف الفقراء والتعساء أولا على طرف ، وسيقف الاغنياء حقا على آخر ، هناك وقف أعداء الرب ، وهنا وقف أعوانه

أوقفوا أنفسكم وانتدبوها إلى الحرب المقدسة دونما تأخير ، وليقم المقاتلون منكم بتنظيم أعمالهم ، وجمع كل ما يحتاجونه للحملة ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل الربيع عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت اشراف الرب وقيادته ».

ولم يبدع البابا أوربان الثاني هذه الدعوة بل ورثها عمن سبقه من بابوات خاصة رجال القرن الحادي عشر للميلاد ، ففي هذا القرن كثر الطامحون للوصول إلى عرش البابوية في اللاتيران ، وكان ممن نجح في ذلك أفراد أسرة يهودية رومانية اسمها « البيرليوني » ، وقدمت هذه الأسرة أكثر من بابا كان آخرهم البابا أوربان الثاني ، وأوربان الثاني وإن لم يكن « بيرليوني » النسب ، الا أنه كان خريج مدرسة هذه الاسرة ، وأشهر بابوات هذه الاسرة البابا غريغوري السابع ، فهو بالواقع من خطط لحملة صليبية تتجه نحو المشرق ، فهو قد عاصر معركة الزلاقة ، وتراسل مع ابن علناس صاحب قلعة بني حماد، وحرضه ضد يوسف بن تاشفين ، كما رأينا في الجزء المتقدم ، وكان البابا غريغوري قد دخل في صراع شديد مع الامبراطور الجرماني هنري الرابع ، فأصدر هذا الامبراطور في ٢٤ كانون الثاني لعام ١٠٧٦ م قرارا بعزل البابا من منصبه وعين بدلا عنه بابا مكنه بقوة السلاح من دخول اللاتيران ، وعلى الرغم من جميع ما بذله البابا غريغوري السابع من جهود فإنه مات منفيا سنة ١٠٨٥ ، فاختار الكرادلة فكتور الثالث بابا خليفة له وكان عجوزا توفي سنة ١٠٨٧ م فجرى اختيار أوربان الثاني ، ولم يستطع أوربان الثاني دخول روما لوجود بابا امبراطوري فيها محتل لها اسمه كليمنت الثالث (٣)، لذلك عاش

هذا البابا متنقلا مابين ايطاليا وفرنسا ، ومن فـرنسا أطلق الدعوة الى الحروب الصليبية ، ومن هذا الباب راى بعضهم في دعوة أوربان الثاني في مجمع كليرمونت محاولة ذات عدة غايات :

أـ امتلاك قوة جماهيرية واقطاعية في فرنسا خاصة واستخدامها في الصراع ضد الامبراطورية ولتمكنه من العودة الى روما بابا معتـرفا به من قبل الجميع ومنتصرا بالوقت نفسه.

ب ـ في اندفاع أعداد هائلة من الاوربيين الغـربيين نحـو الأراضي البيزنطية فرصة لفرض هيمنة رومـا على جميع الكنائس ، او كمـا قيل إعادة توحيد الكنيسـتين الشرقية والغـربية ، وطبعـا هـذا لم يتحقق حتى بعد سيطرة الصليبين على القسطنطينية فيمـا يسـمى بالحملة الرابعة كما سنرى .

ج ـ تنفيذ غايات اعلان الحرب ضد المسلمين والقضاء على الاسلام وسكان الشام وتحويل هذه البلاد إلى وطن لاتيني فيما وراء البحار

وسلف التعرف إلى أوضاع بلاد الشام والوطن العربي في القـرن الحادي عشر ولاحاجة للاعادة هنا ، كما انني لا أجد ضرورة لعرض تفاصيل وقائع ما حدث بعد عقد مجمع كليرمونت ، فهذه التفـاصيل وافية جدا في نصوصنا المنشورة على اختلاف أصولها ومشـاربها ، والغاية مما نكتبه الان تقديم بعض المفاتيح التي تسـاعد على فهـم النصوص ، ويكفي أن نتذكر الان ، أنه بعد وفاة السلطان ملكشـاه تمزقت الدولة السلجوقية ، ولم تعد دولة مركزية لسلطانها سـيطرة على جميع المعترفين بشرعيته ، واسوأ من هذا كان وضـع خلفـاء بغداد ، ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية ، كره افراها الوحدة ومجوها والفوا الفرقة واحبوها ، وارتضـوا بعـدم الاستقرار ، لذلك استمرت الصراعات الداخلية والحروب .

وهكذا بعدما انساح التركمان في بلاد الشـام اسـتطاعوا خـلال اكثر من ثلث قرن من الزمان تدمير بلاد الشام تدميرا مـريعا قلمـا

عرفت له مثيلا في تاريخها المديد ، وعندما أشرف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لانظير له ، وكانت البلاد ممزقة سياسيا :

الحكام جلهم من التركمان الغرباء بالمولد والنشاة لاارتباط لهم بحضارة بلاد الشام ولغتها وتقاليدها ومعتقدات أهلها ، هم هؤلاء الحكام السلطة والمزيد من الارباح الخاصة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار ، وكان من محصلات أعمالهم بالاضافة لما ذكر ، تحطيم قوة القبائل العربية في البلاد مع قوة أهل المدن والمنظمات الشعبية .

وفي ذروة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت انطاكية في مشارف الشام حشود فرنجة أوربا ، قدرت أعدادها بما يفوق المليون مابين رجل وشيخ وطفل وامراة ، وقيل بأن القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت لاتقل عن مئة الف ما بين فارس وراجل وتابع .

وكان الهدف المعلن لهذه الحشود ــ كما راينا ــ الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج ، وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين العرب ، وتحويلها الى جزء من أوربا الكاثوليكية فيما وراء البحار.

ووصلت جموع الفرنجة الى أنطاكية وأخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، اخفق خلالها حكام الشام والجزيرة من التركمان في توحيد جهودهم ، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم ، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة ، وأخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار ضباط عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه ، وعندما دخل الصليبيون أنطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ،وفر يغي سغان حاكمها وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به ،ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين ،وأخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة

ووصلت الى أنطاكية ، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار ،وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الاسوار ، لكن انانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الاخفاق والهزيمة ووصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، الحالة اثناء الحصار بقوله :« أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا اثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما راى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملوا هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ، ولابشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس ، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ... أما حامية القلعة فقد دابت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا ، تاركة اياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها او الدخول اليها الا ليلا او خفاءا ، وبذلك كنا نعاني من الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف» .

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس اندر او س قد تراءى له ، وقال له :« إنني الحواري اندراو س اسمع يابني : عرج ... على كنيسة القديس بطرس ـ القسيان ـ وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب »، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة واتباعهم ، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير « داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان في أنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فإنكم تظفرون ، وأن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن من قبل ذلك حربة في مكان فيه ، وعفا اثرها ، وامرهم

بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الى الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج ، فان امرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معا جلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم ، وثانيا من منعهم قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة بهم ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمى بسهم».

في رواية ابن الأثير أن الهزيمة قد تمت على المسلمين «ولم يضرب احد منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمى بسهم» مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك ان صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، يذكر خلاف ذلك ، فهو يقول :« بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي اقاموها في شتى الكنائس ، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات ، وأقاموا القداسات .

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندرز .

وفي الثانية دوق غودفري ورجاله وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص ، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه ، ومنعا لهم من

النزول الى المدينة ، وكان في الفريق الخامس تنكريد ـ ابن المركيز ـ بصحبة رجاله ، وفي الكتيبة السادسة بوهيموند الفطن مع فرسانه

ولما تدثر اساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى اخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة إثر أخرى قال : دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا الا انه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ماامر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يعلن الارتداد اذا شاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، اذا تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في إثره بالخطى نفسها ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه أحدهما ناحية البحر ، بينما أقام رجال الفريق الآخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق غودفري وكونت نرمندي ، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغله مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين واحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على

جانب البحر أنه لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم فيلوذوا بالفرار ، فلما تبين لهؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق غودفري وهيج العظيم وكونت فلاندرز الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رات البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وأياهم في القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في أثارهم حتى خيامهم ، واثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن اقصاءهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي ... فخلى العدو ورائه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبيذ والطحين ، وغير ذلك مما كان يلزمنا» .

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة انطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م ، وأخذ الصليبيون يعدون انفسهم لمتابعة الزحف جنوبا ، وكان قبل أن تسقط انطاكية ، وحتى قبل ان يصل الصليبيون اليها ان انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين اخو غودفري ـ الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية ـ وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية ، وأخيرا وصلت الى الرها فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لاحدى امارات الصليبيين في المشرق ، وكان من أسباب نجاح هذه الفئة ومن أسباب النجاح عند انطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا اما سريانا يشعرون بالغربة أو من أصل أرمني (٤) ، يضاف الى هذا ان

سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية ، مكروهة وليس لها قواعد متينة ، ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو وفق قاعدة الكر والفر ، ثم ان الأرض لم تكن « بعد » أرضا تركمانية ، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم ، وربما وجد شئ يسير من الشعور الديني ، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد أن جعلوا انطاكية مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا اثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من اراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ، فلقد استولوا على البارة، واخذوا يجردون حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا الى أسوار المدينة ، ثم أتوا على معرة النعمان ، ويحدثنا صاحب أعمال الفرنجة وهو شاهد عيان عن حصار المعرة فيذكر أن جيوش الصليبين:« تجمعت أمام أسوارها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٠٩٨ ، وحاصرتها وحملت عليها حملة عنيفة من جميع نواحيها واستبسلوا استبسالا عظيما شديدا مكنهم من تثبيت السلالم على الأسوار غير أن قوة « الكفار » كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأدنى أذى.

لما رأى سادتنا الا جدوى من ذلك العمل وأنهم لايجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصنا خشبيا باسقا منيعا ، يدور على دواليب أربعة ، وجهزه بما يحتاج اليه ، فكان يوجد في الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع افرار الصياد الذي كان أشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الأسوار ليلاصق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا الى آلة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا ان يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الاغريقية عساه أن يحترق ويتهدم ، الا أن الرب

القوي لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لانه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

اما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى ــ وفيهم وليم مونت بليه وكثيرون غيره ــ فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجانيقهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك اخرون يستعملون رماحا عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمرا حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة في مسوحهم المقدسة ، وهم يصلون للرب ويبتهلون اليه ان يرفع المعرة عن شعبة ، وان يعلي كلمة المسيحية ويلاشي الوثنية ، وكان هناك في ناحية أخرى فرساننا ، وهم في حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة (الوثنيين) كانت من الشدة بالدرجة التي أعاقت رجالنا عن أي تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوتييه دي لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذي سرعان ماتحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، الا انه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلما أخر ، وسرعان ماثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير أن المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا على السور وعلى الأرض ، وأشرعوا نحوهم الأسنة ، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فألقوا بأنفسهم من فوق السور.

وفي الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الأخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون ان رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هاربين الى داخل المدينة ، وقد تم ذلك كله يوم السبت ١١ كانون اول وقت صلاة

الستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيموند على لسان مترجمه ـ زعماء المسلمين بالالتجاء ـ هم ونساؤهم واطفالهم ومتاعهم ـ الى قصر واقع جنوب الحصن ، واخذ على نفسه عهدا امنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه في المنازل والمخابىء ، فلما طلع الصباح اخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من اعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلده دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيموند على من أمرهم بالدخول الى القصر الذي عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلي ، وقتل بعضهم وساق الباقين الى انطاكية ليباعوا بها .
بقي الفرنجة في هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفي أثناء ذلك مات(وليم)أسقف أورنج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئا يستولي عليه ، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعا قطعا ويطهونها ليقتاتوا بها ».

وبعد احتلال المعرة نشب خلاف بين أمراء الصليبيين ، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لاقامة امارة جديدة ، وعارض اصحاب انطاكية الجدد ذلك ، حتى كانت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة ، وهنا ثارت جماهير الفقراء (الطفور)(٥) من الصليبيين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوار المعرة وتحصيناتها فدمرتها كليا ، وهكذا اضطر الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوبا ، يقتلون ويحرقون ويدمرون حتى وصلوا الى القدس ، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر ، فحاصروها حصارا شديدا ، وقاومت

المدينة ، وانتظرت ورود النجدات اليها من القاهرة ، لكن عبثـا كان هذا الأمل ، وأثناء الحصار وصل الى يافا عدد من السفن الايطالية حاملة العتاد والأخشاب والأغذية للفرنجة ، وقام الصليبيون ببناء عدة ابراج حصار تمكنوا بوساطتها من الاستيلاء على القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ ، ونترك هنا وصف ما حل بالقدس لصاحب كتاب أعمال الفرنجة ، وقد شارك بالأحداث فها هو ذا يقول :

« تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها ، فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ...ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم ... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما اخذوا في نهب البيوت المملئة بالثروات .

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وصدر الأمر ... بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم امام الأبواب ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تأتى لأحد قط أن سمع او رأى مذبحة كهذه المذبحة التي المت بالشعب ، المسلم ».

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة ، ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في

فلسطين ، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس واقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام .

لقد نزلت الآن بالشام ضربة مروعة ، واصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الاسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب ، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهم الداخلية ، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل وبدأ التململ يتحول الى أعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام ، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب .

وسلفت الاشارة الى الوضع السياسي في بلاد الشام في القرن الحادي عشر ، ونذكر هنا ثانية أنه عندما دخل الفرنجة هذه البلاد كانت أبرز دولها دولتان : واحدة في حلب والأخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، هما :دقاق بن تتش ورضوان بن تتش ، وقد مثلا جيلا خاصا من أجيال السلاجقة ، فقد أوقفا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة ، فوسعوا أملاكهم ، وجردوا حلبا من جميع اراضيها الشمالية والغربية ، ولم يبق لها بعد هذا الا بعض أراضيها الجنوبية والشرقية ، وقد استهدف الفرنجة التضييق على حلب واحتلالها لملىء الثغرة ما بين انطاكية والرها ، ثم الاطباق على الشام كله .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فتحركوا ، وارادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصلحة وشعورا ومسؤولية ، وابتغوا إقامة حكم « وطني شعبي » يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، واندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب ـ الميليشيا المحلية ـ ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تتش ، حاكم المدينة التركماني ، وكان هذا الثائر يعرف بالمجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحا من قرية الفوعة القريبة من

حلب ، وكان شهما ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك من تولي رئاسة مدينة حلب ، ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تتش في القلعـــة ، وكاد أن يســقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة ، فخذلوا الناس عن المجن ، وثبطوهم عن نصرته ، وحدث انشقاق بين افراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبيا طائفيا ، وأدى هــذا الى اخفاق الثــورة والقــاء القبض على المجــن الفــوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك كما روى شاهد عيان :« عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به انه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ولما ضرب النجار المثقب على كعبــه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقــب ، فلطمــه المجــن وقــال: ويلك لا تعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب.
فلما فرغ قيل له :كيف تجد طعم الحديد ؟ قال : قولوا للحديد : كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحــد ، ولم يحصــل للملك ــ رضوان ــ من ماله إلا ما اقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فــأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ، ومعه ابنان له شــابان ، مقتبــلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك ».

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب ، وســكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ، فــاندلعت الثــورة ثــانية في المدينة ، وأدرك الحلبيون انهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفدا من بينهم غادر المدينة سرا وذهب إلى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفــد عنايتهــا ، ولم تصــغ إلى مطالبيه ، وامام هذا التجاهل حرك رجــال الوفــد اهــالي بغــداد ، واستغاثوا بهم ايام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القــاء خــطبهم

يوم الجمع وكسروا بعض المنابر، وهاج الناس في بغــداد ، فـــاخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاة بتجهيز جيش كبير عهد بقيادته لمودود حاكم الموصل انئذ ، وتحركت هذه القــوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت إلى حلب ، اغلق رضوان بــن تتش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب المدينة واودعهم رهائن عنده في القلعة ، لئلا يفتح الشعب الابــواب ، ويسـلموها للقــوات القادمة من المشرق ، « وبقيت أبواب حلب مغلقة ســبع عشرة ليلة ، واقام الناس ثلاث ليال لايجدون ما يقتــاتونه ، وكثــر اللصــوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضــوان ، فــأطلق العوام السنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فــاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر ـ أي عساكر مودود ـ وامام هــذا الحال المؤلم ، اضطر مودود إلى الرحيل نحو دمشق ، واثناء زحفــه اصطدم بقوة صليبية قرب شيزر فهزمها ، فرفع ذلك مــن معنوياتــه وشد من عزيمته ، وتابع سيره إلى دمشق حيث دخلها وتحالف مــع طغتكين اتابكها ، والذي أصبح سيدها الفعلي بعد وفاة دقــاق بــن تتش (٦) ، لكن عندما بدأ هذا التحــالف يؤتــي بعض ثمــاره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م ، وكان مغتاله من فئة الحشيشية الاسماعليلة ، ويبدو انه كان لرضــوان يد طــولى في الاعداد لهذا الاغتيال وكذلك لطغتكين ، ومع ذلك فقد تــوفي رضـــوان بعد مودود بفترة وجيزة ، وأخذت الأحداث تتحرك في الشام الشمالي بسرعة جديدة .

فقد حل بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خــلاله شــعب المدينة باكثر مــن ثــورة أثمــرت اخيرا ، وادّت إلى تجميد الحــكام التركمان وقيام حكم « شعبي » يسير امور الدفاع عن المدينة ، وبدا يظهر إلى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جــديدة ،وفي هــذا الوقت بالذات وبعد مضي حوالي ربع قرن على الغزو الصليبي ، كان تيار التوسع الصليبي في الشام قد وصل إلى أقصى مداه ، ومــن ثــم بدأ يتحول مده إلى جزر .

ومعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعا واحدا لكن ما أن توغلوا فيه وفتحوا بعض أراضيه حتى حل بهم داؤه العضال ، فدب بين صفوفهم التمزق ، وانقسموا إلى عدة دويلات ،(الرها ، انطاكية ـ القدس ـ طرابلس) وبما أن عددا كبيرا من رجالات الحملة الاولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديدا تمتع بصفات بلدية خاصة ، وحيث أن تدفق الفرنجة من أوربا على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات كهنوتية غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقا ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى وبخاصة بين صفوف الفقراء منهم .

لقد كانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها الى مداه ثم أخذ يتحول الى جزر امام اسوار مدينة حلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ /١١٢٤م ، ففي هذه السنة حضر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الأونة تتبع رسميا لتمرتاش بن ايلغازي احد افراد الأسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وامير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه اميرا عليها شرط أن يسمح لبعض من قواتهم بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كان أبوه اميرا لحلب عندما بدا الغزو الصليبي ، فجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، واخذوا في حصارها ، واثناء الحصار عدل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على ان تكون حلب لابراهيم بن رضوان بن تتش « لانها كانت لأبيه ».

ولم يكن الحاكم الرسمي لمدينة حلب مقيما بها ، بل كانت الأمور في المدينة بأيدي شعبها ، الذي شكل أنئذ نوعا من أنواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها أبو الفضل بن الخشاب ، يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد ، وأخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين واخذوا توابيتهم الى الخيم ، وجعلوها اوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في ارجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، واخر يقول : هذا عليكم ، وأخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يامسلم ابصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفرا (الثفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج) لبرذونه ، واقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ».

ولم يؤثر هذا ــ على شدته ــ على معنويات الحلبيين، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا اصرارا على المقاومة ، « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى اكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن جده وكان من شهود العيان بأن الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه ».

و « لما اشتد الحصار على حلب ، وقلت الأقوات بها وضاق الأمر » ، بالحلبيين اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان أنذاك مقيما في مدينة ماردين مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنج

بخبره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، وبرغم هذا حاولوا أن يوهموا أهل المدينة انهم اعتقلوا رجـالات الوفـد ، لكن ذلك لم ينطـل على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبأ وصول وفدهم سالما الى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ، ويتحدث جد ابن العديم ــ وكان أحد رجالات الوفد ــ واصفا ما حدث في ماردين فيقــول :« لما وصــلنا الى مــاردين ، ودخلنا على حســـام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هــم فيه مــن ضــيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتـوجه اليهـا ، ويرحــل الفرنج عنها ، وانزلنا بمكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان أخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب ، عدت وأخذتها ، فقلنا في انفسنا : ما هذه إلا فرصة ، وقلنا له : لاتفعل ، ولاتسلم المسلمين إلى عدو الدين ، فقال : وكيف اقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي ابو غانم (جد ابــن العديم) :« وايش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن اهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك امرهم ».

قال القاضي ابو الفضــل ــ عم ابــن العــديم وراوي الخبـــر له: فكتبت كتابا من حلب إلى والدي ابو غانم أخبره بما حــل بــأهل حلب من الضر ، وانه قد أل الأمــر بهــم إلى اكل القــطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه ، وغضب وقــال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الامــر إلى هــذه الحالة وهــم يكتمــون ذلك ويتجلدون ، ويغــرونني ويقــولون : إذا وصلت إلينا نكفك امرهم .

قال القاضي ابو غانم : فأمر تمــرتاش بــأن يوكل علينا ، فــوكل علينا من يحفظنا خوف الانفصال عنه إلى غيره ، فــأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي ــ صاحب الموصــل ــ فـــأعملنا الحيلة في الهـــرب إلى الموصـــــــل ، وأن نمضي إلى البرسقي ــ صاحب الموصــل ــ ونســتصرخ بــه ، ونســتنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا

عظيما إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولايعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال :وكأن الزمان شتاء والثلج كثير على الارض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت ، وأخبر رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لايأخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لاأعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من أخره ، وكان قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل ».

وفي الموصل قابل هذا الوفد أق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والاسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله :« لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينيا ».

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م الى نهايته انتهى طور الاحتلال الصليبي ، وبدات حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع الى حال الهجوم

وبدؤوا يخططون لأعمال التحرير ، وغالبا ما توقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه.

لقد مر طور حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما ان كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها ، وتعلقت الأمور كلها بشكل اساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة القاهرة.

كانت مدينة الموصل - كما سلف بنا القول - أعظم مدن منطقة الجزيرة mesopotamia، وفي التاريخ الاسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائما متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، وقلما كان لها دورها الفعال في أحداث بلاد الشام ، إنما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحول للاشتراك في أحداث الشام ، إلا أن هذه المشاركة ظلت هامشية حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وقبل قدوم الغز وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغز هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا •

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغز نحو الشام ، وسبب هذا تحولا جذريا في تاريخ الموصل مع اقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءا من الشام ، وتورطت في مشاكله، واصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والاساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام ، وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الاتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا •

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغرة بين الرها وانطاكية ، ولعزل الشام عن المشرق ، بعد ما تم عزله الى حد بعيد عن مصر ، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل ، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة « طوعية شعبية » مع الموصل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع أعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي ، لكن لسوء حظ المسلمين أن البرسقي اغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقاذ حلب ، وبدء حرب التحرير •

ولقد ادى اغتياله الى انتكاسة مروعة ،لكن مؤقتة ، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة ، وتغلبت عليها ، لقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل كان يعرف ما يريد عن ايمان وعزيمة، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل أهل الموصل الى بغداد، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة ، وتعاقدوا معه على تولي مقاليد الأمور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة، وبعدما تم التعاقد معه أقنع الوفد سلطان بغداد بالموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه •

في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين الزنكي زمام الامور بالموصل ، وفي هذا يمكن القول بدأت بالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، الأمر الذي سنبحثه في الفصل المقبل ، وكنا قبل قليل قد أشرنا إلى ما نجم عن قدوم الغز من تبديل للجغرافيا السياسية والاستراتيجية لبلاد الجزيرة والشام ، وكذلك أعقب قدوم الفرنجة ونجاحهم في تأسيس دولهم تبديلات جغرافية سياسية واستراتيجية جديدة ، فقد عادت الأوضاع إلى ما يشبه ما كانت عليه قبل الفتح العربي في القرن السابع ميلادي بحيث جاءت الان

المؤثرات الكبرى عبر آسية الصغرى وشدت البلاد نحو هذه المنطقة ولهذا عادت إلى مكان الصدارة من جديد مدن : انطاكية والرها والقدس وطرابلس ، لكن هذا لم يؤثر كثيرا على مكانة كل من دمشق وحلب ، وتدنت مكانة مدينة حمص وارتفع شأن مدينة حماه لا لانها فصلت بين دمشق وحلب فقط ، ولكن لأنها تصدت لامارة طرابلس ولقوى الحشيشية التي استولت على عدد من القلاع الحصينة في جبال بهراء (العلويين) ولأنها أيضا بقيت على صلات وثيقة مع قبائل بادية الشام وأهل المشرق •

ورسخ تاسيس الفرنجة لدولة لهم في الرها مكانة الموصل وأهلها لتقود المرحلة الاولى من طور التحرير ، كما أن أهل الشام انجذبوا نحو العراق وليس نحو مصر ، كما هو موروث وطبيعي لضعف الخلافة الفاطمية في مصر ، ولقدوم التركمان من الشرق ، ولانشغال حكام الموصل في دفع الخطر الذي تهددهم من الرها ، وسنجد أنه بعدما تمكنت الموصل من الانتصار على الرها ، وبعدما حررتها من حكم الفرنجة ، تراجع تاثير الموصل في الأحداث الشامية ، وعادت الأنظار الشامية مجددا تتطلع نحو مصر .

وجاء التطلع إلى مصر عبر دمشق ، وتوحدت دمشق مع حلب في مرحلة التحرير الثانية التي تلت مرحلة الموصل ، وهذا ما سنبحثه في الفصل المقبل ، وحتى يسهل فهم الأمور مفيد أن نختم هذا الفصل بتقديم عرض موجز لتاريخ الذولة البورية وحكمها لبلاد الشام الجنوبية ، أو بالحري لحكمها لدمشق .

البوريون أتابكة دمشق

سلفت الاشارة إلى التحاق دقاق بن تتش بدمشق ، وبعد هذا قدوم اتابكه طغتكين إلى دمشق حيث استقبل استقبالا حافلا في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وعلى الفور سلم دقاق إليه قيادة الجيش « واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسية البيضة (٧) » ، ووطد طغتكين سلطانه وتخلص من خصومه وكانت علاقاته بزوجته صفوة

الملك أم دقاق جيدة الى أبعد الحدود وهكذا « استقامت له الحال بدمشق ، وأحسن السيرة فيها ، وأجمل في تدبير أهليها ، وبالغ في الذب عنها ، والمراماة دونها ، وسكنت نفس الملك شمس الملوك ـ دقاق ـ اليه ، واعتمد في التدبير عليه (٨) » .

وكان طغتكين طموحا واسع الحيلة لذلك عمد إلى التخلص من دقاق بدس السم له ، وهكذا توفي هذا الملك الفتى في رمضان ٤٩٧ هـ / حزيران ١١٠٤ م ، وكانت دولته حين مات تضم مع الشام الجنوبي حمص وحماه والرحبة(٩) .

وبعد وفاة دقاق استدعى طغتكين ارتاش بن تتش من بعلبك وكان في الثانية عشرة من عمره وعينه ملكا جديدا لدمشق « وتقدم الى الأمراء المقدمين والأجناد بالطاعة لأمره والمناصحة في خدمته ، وأجلسه في دست المملكة (١٠) » وذلك بعد قرابة شهرين مضيا على وفاة دقاق .

ولم يطمئن ارتاش لسلامة نفسه في دمشق وخاف « من ظهير الدين أتابك ومن الخاتون صفوة الملك . وأوقعت أمه في نفسه الخوف منهما ، وأوهمته أنهما ربما عملا عليه فقتلاه(١١) » فهرب بعد اقل من شهرين مضيا على تمليكه واجتمع معه صاحب بصرى ،وقد عاشا فترة من الزمن في منطقة حوران ثم مضيا الى المملكة اللاتينية في القدس على أمل الحصول منها على جيش يستوليان به على دمشق ، لكنهما أخفقا ، « فحين يئسا من المعونة ، وخاب أملهما في الاجابة توجها إلى ناحية الرحبة في البرية ، واستقام الأمر بعدهما لظهير الدين أتابك وتفرد بالأمر ، واستبد بالرأي (١٢) » وتخلص من بقايا أسرة تتش ورجالاتها ، فبعد وقت قصير من فرار ارتاش توفي اخر افراد أسرة دقاق ، وهو تتش بن دقاق وكان طفلا صغيرا ، وبهذا يمكن اعتبار سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م سنة البداية الفعلية لتأسيس الدولة البورية في دمشق من قبل طغتكين ، وحكمت هذه الدولة الجزء الأكبر من بلاد الشام لمدة تقارب النصف قرن، وكان طغتكين في تاريخها هو

الشخصية الابرز والأطول حكما والأكثر استقرارا ، كما أنه كان على رأس شخصيات عصره في المشرق العربي ، وكان على طغتكين أن يحصل على رضى السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مع الاعتراف به حتى يكسب حكمه سمة الشرعية ، كما توجب عليه مداراة الوضع في حلب والافادة من فوضى الحكم فيها ما أمكن ، وعمل بالوقت نفسه على أن تكون علاقاته بالخلافة الفاطمية حسنة لدفع خطر الصلبيين وهكذا تعاون معهم في ذي الحجة سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٥ م في القتال ضد الصلبيين في المنطقة مابين يافا وعسقلان (١٣) .

وصدر الخطر الاعظم على حكم طغتكين عن الفرنجة خاصة المملكة اللاتينية في القدس ، وتصدى طغتكين لهذا الخطر وحقق بعض النجاحات ، إنما فيما بعد تهادنت السلطة البورية مع الصليبيين وظلت الهدنة قائمة ـ كما سنرى ـ طوال العصر البوري بشكل عام ، وكان الدافع الاساسي للتهادن رغبة حكام دمشق في دفع المخاطر على سلطانهم من اصحاب حلب والموصل ، فحين انعدمت هذه المخاطر اتخذ طغتكين موقف المهاجم للصليبيين .

ففي سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م هاجم الصليبيين ومنعهم من بناء حصن العلعال في وادي الاردن وفي السنة التالية عسكر في سواد حوران ومنع الصليبيين من العيث في المنطقة ، وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م تعاون مع الاسطول المصري في الدفاع عن صيدا والتفريج عنها ، كما اخذ يعد العدة لمساعدة طرابلس وفي السنة التالية ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م حاول مجددا الدفاع عن طرابلس بتسلم عرقة التي شكلت خط الدفاع الاول عنها فاخفق وسقطت عرقة ثم سقطت طرابلس للصليبيين الذين اسسوا فيها دويلتهم الرابعة في المشرق (١٤) .

واثر هذا جرت مفاوضات بين طغتكين وبلد وين الاول ملك المملكة اللاتينية بالقدس وتم عقد معاهدة هدنة في سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م اتفق فيها على ان يكون السواد

- حوران - وجبل عوف اثلاثا : للاتراك الثلث ، وللافرنج والفلاحين الثلثان (١٥) .

بيد ان هذه الهدنة لم تكن اتفاقا شاملا يقضي بايقاف جميع العلميات العسكرية بين الطرفين الدمشقي والصليبي ، فهذا لم يكن بالامر الممكن لأن كل دويلة صليبية لابل كل اقطاعية كان لها مصالحها وسياساتها الخاصة ، وهكذا راينا من قبل طغتكين يحاول تقديم المساعدة لحلب ضد انطاكية لا بل اوضح من هذا رأيناه يشترك مع مودود في القتال ضد قوات مملكة القدس ، وايضا رأينا عملية اغتيال مودود في المسجد الجامع في دمشق (١٦) .

استطاع طغتكتين الحفاظ على حكمه حتى سنة وفاته في ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ولم يكن هذا بالامر الهين خاصة وانه تعرض لضغوط شديدة من المشرق ، فزار بغداد سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م وقدم هدايا ثمينة لدار الخلافة ولدار السلطنة فحصل على الرضى وكتب له منشور سلطاني بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده في ارتفاعه على ايثارة واختياره (١٧) هذا ويلاحظ ان طغتكين سمح في السني الاخيرة لحكمه لاتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة من الحشيشية بالتمركز في دمشق وقد نالوا مساندة وزيرها ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني وحصلوا بوساطته على قلعة بانياس التي كانت مركز الدفاع الاول عن دمشق ضد المملكة اللاتينية بالقدس .

يضاف الى هذا ان سنة وفاة طغتكين كانت السنة التي تسلم فيها عماد الدين زنكي حكم الموصل الامر الذي كان له ابعد الاثار على دمشق وحكامها البوريين (١٨) .

كان طغتكين قد اوصى بالملك من بعده لابنه بوري ، وهو الذي نالت الدولة اسمها منه ، وقد افتتح بوري عهده بمذبحة كبيرة اوقعها باتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، وعندما عرف اسماعيلية بانياس بما حدث في دمشق تخلوا عن بانياس لصالح الصليبيين

الذين تشجعوا كثيرا فحشدوا قواتهم وزحفوا ضد دمشق وحاصروها في محاولة الاستيلاء عليها ، لكن هذه المحاولة اخفقت ، غير ان دولة بوري مالبثت ان تعرضت لمخاطر جديدة حيث انتزع عماد الدين زنكي منها مدينة حماه،لكن استطاع بوري بعد وقت قصير استرداد حماة،وفيما هو في ذروة نشاطة تعرض لمحاولة اغتيال نفذها اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة وقد اصيب بوري في سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م بجراح بليغة عاش بعدها فترة قصيرة حيث توفي في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م(١٩) .

كان بوري قد اوصى قبل وفاته بالملك من بعده لابنه شمس الملوك اسماعيل ، وعهد ان تبقى بعلبك واعمالها لولده محمد ، وفي البداية نشب نزاع بين اسماعيل ومحمد حسم لصالح اسماعيل ، واثر تفرغه من امر بعلبك هاجم بلدة بانياس فاستردها بهجوم عاصف عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، كما استطاع بعد هذا اعادة سلطانه على مدينة حماه ، غير انه ما لبث ان تخبط في ادارة اموره الداخلية وعندما شعر بعجزه راسل عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م يطلب منه الاسراع الى دمشق ليسلمها له وإلا فانه سيسلمها الى الصليبيين ، وعندما علمت امه بذلك « امرت غلمانها بقتله ، وترك الامهال ، غير راحمة له ، ولا متألمة لفقده »(٢٠) .

وعينت الخاتون صفوة الملك ابنها محمود حاكما جديدا لدمشق ،وكان على هذا الحاكم دفع زنكي عن دمشق ، ذلك أن زنكي قدم الى دمشق ليتسلمها من اسماعيل بن بوري،وعندما علم بمصرعه قام بمحاصرة المدينة ،وشدد عليها الخناق ، واثناء ذلك تلقى رسالة من الخليفة العباسي المسترشد بالله(٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ / ١١١٨ ـ ١١٣٥ م)يأمره برفع الحصار عن دمشق والقدوم مع قواته الى بغداد ، فنفذ هذا الامر ورفع الحصار عن المدينة (٢١) .

وعاود زنكي أعماله التوسعية على حساب الدولة البوزية فحاول

احتلال حمص فـأخفق، غير انه نجـح بـالاستيلاء على بعلبـك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩ م حيث عهد بالحكم فيها الى نجـم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، ثم استولى على بانياس (٢٢) .

وبعد هذا انتقل عماد الدين من الحرب الى الدبلوماسية ، فعقـد مع البوريين زواجا سياسيا حيث تزوج هو من الخاتون صفوة الملك المعروفة باسم زمرد أم شهاب الدين محمود ، وفي الوقت نفسه تزوج محمود من ابنة زنكي ، وتنازل له عن حكم مـدينة حمص ، غير أنه مـا البث شـهاب الدين محمـود أن أغتيل سنة ٥٣٣ هـ ـ ١١٣٨ م فبايع الأمراء جمـال الدين محمـد بـن بوري ، الذي فوض أمور دولته الى معين الدين أنر (٢٣) .

أصبح أنر الآن الحاكم الفعلي للدولة البورية ، وقد برهن أنه من ابرع الساسة واكثرهم قدرة ، فقد استطاع الحفاظ على اسـتقلال دمشق بوساطة توازن حذر بين عمـاد الدين زنكي والمملكة اللاتينية بالقدس ، فقد كان يستعين بالصليبيين ضد عمـاد الدين ، وبعمـاد الدين أو خلفائه ضد الصليبيين .

وكان عندما بلغ صفوة الملك زمرد خبـر مصرع ابنهـا في دمشـق حرضت زوجها عماد الدين على الثار ، فجاء ومعه قـواته وحـاصر دمشق وضيق الخناق عليها سـنة ٥٣٤ هـ ـ ١١٣٩ م ، واثناء الحصار مرض محمد بن بوري مرضا شديدا أودى بحياته ، وعندما عرف عماد الدين بهـذا الحـدث ازداد طمعـه بـالاستيلاء على دمشق ، لكن أنر استطاع ضبط الأمور وجلب أبق بن محمـد وعينه حاكما جديدا ، أنما بشكل اسمي ، وراسل معين الفـرنجة وعقـد معهم اتفاقا يدفع لهم بموجبه مبلغا من المال ويسـلمهم بـانياس إن هم ساعدوه على دفع عماد الدين زنكي ، وبـالفعل تحـركت قـوات الفرنجة نحو دمشق ، مما أرغم عماد الدين على الانسحاب ، ووفي إثر هذا أنر بعهوده ، فحاصر بانياس حتى تسلمها ثم سـلمها الى الفرنجة (٢٤) .

ولم يحرص الفرنجة على سلامة دمشق وحكامها حرص انر عليهم ، فهم أرادوا احتلال دمشق اذا أمكنتهم الفرصة ، واذا لم تمكنهم دفعوا غيرهم عنها حتى تحين الفرصة ، فقد خشي الفرنجة الى أبعد الحدود من وحدة أجزاء بلاد الشام ، وهذا واضح تمام الوضوح فيما كتبه وليم الصوري في الأجزاء الأخيرة من كتابه ، فهو كان شاهد عيان للأحداث شغل مناصب عالية جدا في المملكة اللاتينية في القدس .

وهكذا نجد أنه بعدما استحوذ الفرنجة على بانياس خططوا للاستيلاء على قلعتي بصرى وصلخد وبذلك كان يتسنى لهم الاطباق على دمشق خاصة عندما نتذكر امتلاكهم للأجزاء الكبرى من الساحل الشامي وعدة قلاع قريبة من منطقة البقاع ثم ان بعلبك كانت ملكا لزنكي ، وهكذا نجد في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م قيام ملك القدس بالزحف نحو بصرى على رأس قوة كبيرة جدا ، وكان يأمل في تسلم حصني بصرى ثم صلخد ، وذلك بناء على اتفاق عقده مع التونتاش حاكم هاتين القلعتين إثر زيارة قام بها الى القدس ، ولاقى الجيش الصليبي مقاومة عنيفة أثناء زحفه في أراضي حوران من سكان الأرياف والمدن والقبائل العربية ، وتم الزحف في الصيف ، وكان العرب قد غوروا الآبار ، وهكذا عطش الفرنجة عطشا شديدا ، زاد من قسوته الهجمات الصاعقة التي كان يقوم بها المقاومون العرب ، وعندما وصل الجيش الصليبي الى بصرى ، وكان معه الحاكم الخائن التونتاش فوجىء بقيام زوجة هذا الخائن بإغلاق أبواب القلعة والعزم على الدفاع وعدم السير في طريق الخيانة الذي سلكه ، زد على هذا علم الفرنجة أن انر معسكر مع قواته في صلخد بعد تسلمها وأن نجدات كبيرة قادمة من حلب يقودها نور الدين محمود بن زنكي .

وكان زنكي قد اغتيل قبيل قرابة السنة وتسلم الحكم في حلب ابنه نور الدين ، وعقد نور الدين معاهدات مع انر وتزوج ابنته ، وبناء على معطيات الوضع الجديد قرر الفرنجة التراجع ، وكان طريق

الانسحاب محفوفا بالمخاطر ، وكاد الجيش الصليبي يفنى عن بكرة ابيه نتيجة لهجمات رجال المقاومة العرب ، لولا تدخل انر فقد «جعل معين الدين يكف المسلمين عنهم ، ويصدهم عن قصدهم والتتبع لهم في انهزامهم »(٢٥) .

لقد انقذ انر الجيش الصليبي وأجل تدميره مدة أربعين سنة ، عندما دمره صلاح الدين عند قرني حطين ، ومع هذا قابل الصليبيون صنيع هذا الحاكم الذي آثر ملكه العاجل على قضية الأمة ، بأن قرروا بعد عامين الاستيلاء على دمشق .

ومن المعروف أن عماد الدين زنكي كان قد حرر مدينة الرها في سنة ٥٣٩ هـ ـ ١١٤٤ م وازال دولتها الصليبية من الوجود الأمر الذي اثار مايعرف باسم الحملة الصليبية الثانية وشارك في هذه الحملة أعداد هائلة من الأوربيين وقادها إثنان من أكبر حكام اوربا هما فرانسوا السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا ، وبعد جهود مضنية ورحلة طويلة عبر أوربا الشرقية وآسية الصغرى وصل الناجون من عناصر الحملة الى القدس ، وفي عكا عقد مؤتمر واسع لزعماء الفرنجة تصدره ملك القدس وملك فرنسا والملك الالماني ، واتفق الثلاثة على الزحف الى دمشق لاحتلالها .

وفي دمشق قام معين الدين انر بتنظيم الدفاع عن المدينة ، واستغاث بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل وبالقوى الموجودة في البقاع ومنطقة بعلبك فهب الجميع لنجدة دمشق ، وصرف الفرنجة « اعنتهم الى ناحية دمشق في حشدهم وحدهم وحديدهم في الخلق الكثير على مايقال ، تقدير الخمسين الف من الخيل والرجل ، ومعهم من السواد والجمال والابقار ماكثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ... فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربها من الماء ، وزحفوا اليه بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين»(٢٦) (٢٦ تموز ١١٤٨ م) .

ونشب قتال عنيف بين الفرنجة والمدافعين عن دمشق ، واشتد قرب فرع نهر يزيد عند منطقة خانق الربوة ، وإثر هذا انتشر الصليبيون داخل البساتين الكثيفة فأكلوا ثمار المشمش قبل نضوجها وتعاظمت المقاومة داخل البساتين،وعلم الصليبيون بوصول نور الدين مع قواته الى منطقة حوران وبتدفق النجدات من منطقة بعلبك ، وخشية أن يطوقوا داخل البساتين ، قرر الصليبيون التحول بمعسكرهم نحو المنطقة الواقعة مابين باب الصغير وباب شرقي ، أملين بألا يحاصروا في تلك المنطقة وبأن يلقوا بعض المساعدة من الداخل لأن معظم السكان هناك كانوا يدينون بالمسيحية ، ومجددا خاب فأل الفرنجة ، فعرب دمشق على اختلاف دياناتهم نظروا اليهم نظرة واحدة ،واشتدت المقاومة لذلك اضطر الصليبيون الى رفع الحصار عن دمشق بعد عدة ايام والرحيل « مجفلين والهرب مخذولين مفلولين ».(٢٧) .

أظهر حصار دمشق مدى ضعف الدولة البورية وأن نور الدين محمود هو القائد المؤهل للجهاد ضد الصليبيين وحافظ نور الدين على التعاون مع معين الدين أنر حتى وفاته سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م (٢٨) ، وبعد هذا عزم على دخول دمشق وازالة حكم الأسرة البورية منها ، وحاول أكثر من مرة احتلال المدينة فأخفق غير أن شعبيته ارتفعت فيها ، ولهذا اضطر حاكمها مجير الدين أبق لزيارة نور الدين في حلب سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م حيث قدم له فروض الطاعة فرده نور الدين الى دمشق ليحكمها نيابة عنه، (٢٩) ومع الايام تصاعدت مكانه نور الدين وازدادت مكانة حكام دمشق هبوطا حتى محرم مطلع عام ٤٤٩ هـ / أذار ١٠٥٧ م ، أنذاك وصل نور الدين مع قواته الى أطراف دمشق بعدما أخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب نور الدين بتسليمه دمشق فرفض حاكمها مجير الدين وحاول مقاومته ودفعه بالقوة ، لكن قواته كانت متخاذلة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق سور المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصاحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لماهم عليه من المحبة

لنور الدين ، وعدله وحسن ذكره ، وبادر بعض قطاع الخشب بفأسه الى الباب الشرقي فكسر أغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ولم يقف احد بين أيديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية»(٣٠).

كان دخول نور الدين الى دمشق الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري معقبا على دخول نور لدين الى دمشق ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة القدس اللاتينية :« وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسلمين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت لأنه كماقيل :كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك»(٣١).

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت مدينة دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم وهذا ماسنتناوله بالبحث في الفصل المقبل .